ذباب

قصة

لايفان كانكار — نقلها — عبد الوهاب الأمين
الاديب السلوفيني — بغداد

« ولد ايفان كانكار — أعظم أدباء سلوفينيا — وهي جزء من يوغوسلافيا في سنة ١٨٧٦ وتوفي في سنة ١٩١٨ وهو مؤلف كثير من الروايات والمسرحيات والاقاصيص . وقد قريض الشعر وكتب في الادب . « كان سقط رأسه في « فرنيكا » قرب مدينة « لوبليانا » وعاش في صباه فقيراً معدماً ثم هاجر من سلوفينيا الى « فينا » عاصمة النمسا (وكانت سلوفينيا آنذاك تحت حكم النمسا) ، فنبغ وظهر شأنه في عالم الادب ، ولكنه مع ذلك عاش مدة طويلة بائساً فقيراً يشتغل بالصحافة المرة . وقد أشعل النار في الطبعة الاولى من ديوانه بأسرع من أستاذ « لوبليانا » لانه عده مخالياً للآداب العامة . وأدبه على وجه العموم دليل واضح على تعمقه في دراسة النفس الانسانية وهو مفرغ في قالب بسيط الاسلوب قريب من الاذهان ويتصف بعطف خاص على الطبقات المظلومة »

كان لجاري ابن وحيد في السادسة من عمره ، جميل الطلعة وسيم الملامح وسامة تفوق الحد الطبيعي ، وشعره أصفر — كالشعير الخالص — يصل الى كتفيه . يرمم منظره الجانبي الناظر بأنه تمثال من الرخام ، وخداه الأملسان يكادان يكونان خدي بنت ، وفي فكه مقط يبدو شيئاً من البروز والطول والشدة . وعيناه — وهما زرقاوان لمّاعتان — تبدوان شديدتي السكر ، وفي نظرتهما شيئاً من الثقة والعزم . كان هذا الصبي عندما دخلت الغرفة ، واقفاً امام حوض الغسيل ، وعليه سيماء التفكير العميق ، فالتفت اليّ ببطء وسألني بصوت خافت هادىء : —

— هل رأيت قبل هذا ذباباً يموت ؟

— كلاّ

— حسناً ! تعال وألق نظرك

وكان حوض الغسيل مملوءاً حتى الشفة تقريباً . وعلى وجه الماء طفت مجموعة كبيرة من الذباب الميت ، وقد تجمعت كأنها تريد ان تدرأ عن نفسها الموت . قد يده واصطاد تلك الاجسام السود الميتة ورمى بها الى الأرض ، ثم ذهب توّاً الى فراشه المعدّ له ؛ وكان الذباب

فوق أغطية الفراش ، وعلى الوسائد ، فاصطاد قبضة منه ، وأطلقها جميعاً ما عدا ذبابة واحدة ، فرمى بها في حوض الغسيل قائلاً : — انظر الآن مليًّا !

في اللحظات الاولى كانت الذبابة تطفو هادئة على وجه الماء ولا تزال أجنحتها جافة لم تبتل . فقال الصبي : — انها لا تدري بعد أين هي الآن !

فأخذت تطفو هنا وهناك ، وترفع أجنحتها وتذهب في كل اتجاه

— لقد أدركت الآن ! انها تحاول أن تجد لنفسها مخرجاً ! ثم وقف على الحراف اباهيه ورنا بطرفه الى حوض الغسيل وقال : — انظر ! ان الذبابة حيوان شجاع ، ولكن حقها بقدر شجاعتها ! ان سلاحها الوحيد هو الجناحان ، ولكنها مع ذلك تضرب بهما في الماء حتى لقد ابتل احدهما ! . . ومع هذا فهي ليست من الحمق بقدر ما خيل اليَّ ، ولعلها سمعتني ! لقد وقفت تستريح وتحاول تجفيف جناحيها

ولما استراحت قذفت نفسها بسيقانها الست وأخذت تعوم متجهة نحو الشاطىء ، وعيناها الطائلتان — وقد بدتا اكبر من كيانها كله — تحملقان في بياض حوض الغسيل !

فانحنى الصبي الى الماء حتى كاد وجهه يبتل ، وقال : لكأني أسمع حفيف جناحيها !

ومضت الذبابة في عومها قدُماً نحو الساحل . فأعادتها موجة متراجعة ، ولم تستطع اقدامها المبتلة ان تجد لها تمسكاً على وجه البلورة الناعمة . فعادت كما كانت ، وأصبحت ، وهي تحاول الاستراحة ، تعمن في الابتعاد — مرغمة — عن الساحل ، ولكنها اندفعت فجأة ، بعامل اليأس والقنوط ، الى الامام . فتكونت في الماء دائرة . واعادتها الموجة الى فوق وهي جافة فاستجمعت كل قوة املكها ورفعت نفسها عالياً ، وقد سقط رأسها وفيه تانك العينان العظيمتان الى أسفل . وأخذت سيقانها المترحلقة تبحث عن خوة لها . وشرعت ترحف شيئاً فشيئاً فوق الحافة الملساء . واخذت تحاول ان تخفف عن نفسها بتحريك الاجنحة ، ولكنها كانت مبتلة ملتصقة ومبتة بجوار ذلك الجسم المنهوك ، وكان أسوأ ما في الامر انها لم تكن تستطيع الاستراحة لأنها كانت تتراقى الى الهاوية عند كل وقفة تقفها . وأخيراً وصلت الى القمة ، حين كانت حافة الحوض منقوسة تقوساً فسيحاً . وهناك استراحت طويلا ثم شرعت تمدد سيقانها وتمسح الواحدة بالأخرى . وكذلك كان جناحاها ايضاً يرتجفان . فقال الصبي : انها تظن نفسها قد نجت الآن ! ما أشد لمعان عينيها الكبيرتين ! وانتسم ببرود ، وهو يشير بسبابته الى الأمام . واندفعت الذبابة في الماء وبلغ من قوة اندفاعها انها غطست فيه عميقاً قبل ان تستطيع العودة ببطء ومشقة الى سطحه ، وهناك تأرجحت بهدوء قليلاً كأنها مبتة ، وقد بدت أصغر مما كانت عليه أولاً ، فطهرت وكأنها لا تكبر البرغشة شيئاً

فأشار الصبي قائلاً : — لقد أصبح جناحاها الآن بدون جدوى
وكذلك كانا هما في الحقيقة لا يتأثرهما النظر . وقد التصقا بجسمها كأنهما قطعتا نسيج مبلول ، وقد حركت سيقانها قليلاً ثم فاءت الى السكون مرة أخرى

قال الصبي : — والآن انها تكاد تموت من مجرد الخوف ، فهي لا تستطيع أن ترى الشاطىء الآن مرة اخرى ولكني سأوقظها !

قال ذلك وذهب قدماً الى الفراش وقبض على ذبابة أخرى ورمى بها في الماء دافعاً اياها بأصبعه نحو الذبابة الشقية على الموت . وكانت هذه الذبابة الأخيرة تبدو أصغر من الاولى وأقوى لانها اندفعت هائجة في الموج دافعة نفسها بقوة ، وجناحاها يؤزان ازّاً . وكان ازيزهما هذا يشبه صلاة بخار ماء قد أشفى على الموت غرقاً غير انهُ عزم على ان لا يموت !

وعند ما هدأت دارت دورة كاملة ونظرت حواليها بهدوء فأخذت الذبابة الاولى تعود اليها الحياة عند ما سمعت بشريكتها في الهم والكرب وبدأت سيقانها النحيلة تلبط لبطات قصيرة وخفيفة . فوجّه الصبي نظري قائلاً : ان الذباب مخلوقات لا قلوب لها ! فقد تكون هاتان الذبابتان أختين ، او قد تكونان لدتين تلعبان معاً . ولكن انظر ماذا يحدث الآن !

كانت الذبابة الثانية قد شعرت — وهي تلقي بنظرها الى سطح الماء واقفة — بالذبابة الاولى تسبح بقوة اليائس نحو الساحل وقد ترصدت عيناها الجرف اللامع الأملس ، فضربت الماء بضع ضربات قويات وانقضت عليها ودفعت بها الى أسفل ، كما يفعل من تحطمت سفينته فينطلق بقوة يسارية طافية . فقاومتها الاولى مقاومة لم تستمر الا دقيقة أو دقيقتين واستندت كل ذرة من قوتها لكي تدور نصف دورة من تحت الماء وترى ما حواليها . ثم استدار رأسها الكابل تحت تلك التي ركبت فوقها بدون رحمة . ثم ضمّت سيقانها جميعاً حوالي جسمها . فأعلن الصبي قائلاً : هذه هي الخاتمة !

واندفعت الذبابة الثانية مبتعدة عن الاولى وقد ابتلت عيناها ، وهي تعوم بقوة وشجاعة في اتجاه الساحل وهو عكس اتجاه الاولى تماماً ، فراقبها الصبي مبتسماً ابتسامة خفيفة وقال :

— على رسلك ايتها الباخة الشجاعة . ثم اخذ عود ثقاب من فوق المائدة التي قرب الفراش وأغرق الذبابة الى عمق ثلاث عقد تحت الماء ، ولما أطلقها شرعت تصعد مائدة ببطء كأنها تتبلل خيطاً ، وهي متجهة نحو الساحل قدماً ، وأخذت تنفض لتجفف جسدها غير أن جناحيها كانا متثاقلين بالماء لا تحركان الا بصعوبة . ثم اشرأبت تنظر في كل اتجاه ، وتقيس المسافة الى الساحل بكل حذر

وغمست سنة من المجاذيف في الماء ! ست سيقان دقيقات قويات ! وسبحت وهي تحقق

الماء خفقات متواليات مليئات عزماً ، كما يفعل البحار الذي خبر طرق البحار وهو يعرف مدى قوته والهدف الذي هو أمامه . فقال الصبي : انها قادرة ! ولعلها لحدى اللواتي حاولن الهروب عندما ذهبت لآتي بغيرهن . لقد كان في الماء وقتئذ عشرون ذبابة بالضبط ، ولما عدت لم يكن هناك سوى خمس عشرة واحدة . والآن !

وصلت الساعة الشجاعة الى الساحل في وقت قصير جداً . ثم وقفت هنيهة لكي تدع الموجة المقبلة تدفعها الى الجرف المنحدر . فقال الصبي : انها لتستطيع أن تفعلها ! انظر اليها أين سبحت ! لقد اتجهت الى النقطة الصغيرة التي فيها ضوء الشمس !

وكان شعاع من شمس الصباح يضيء وجه البلورة الناعم . وهناك تشبثت الذبابة بسيقانها الممتدة كيما تتفادى السقوط الى أسفل

— لقد اكتسبت خبرة ، وهي تريد أن تجفف جسمها ، وتتفادى تعب التسلق الى القمة !

وشرعت تنظف سيقانها وتجفف وجهها بتؤدة واحتراس وهي لا تزال معلقة في المتفرج الاملس الذي يكاد يكون عمودياً ، ولكنها كانت متعلقة بثبات ، لأن سيقانها جفت بسرعة في ضوء الشمس ، وفارقت أجنحتها جسدها وخفقت خفقة خفيفة . وكان الصبي يرقبها بعينين تبرقان فقال : والآن !

والمرة الثانية دفعها بأصبعه فنزلت منقضة في الماء الى قعره تقريباً ولما عادت الى سطحه مرة أخرى ، كانت سيقانها منتشرة ، وأجنحتها ترتجف ، ثم كرت تائهة نحو الساحل ، ولم تعد الآن تسبح بعزم كعزمها السابق ، بل أصبحت أشد سرعة وأقل ثقة بنفسها ، وتلك علامة القلق وغشاوة البصر كليهما . فقال الصبي بخبث هادىء : —

— انها ستعيد الكرة ، وستكون كالآدمي تماماً . ما أثقل تنفسها ! هناك منهن من لا تستطيع الوصول الى الساحل أبداً ! ومن الغريب أنهن لا يصرخن باكيات !

وفي الحق لقد وصلت الى الساحل واستراحت هناك ، فأعادها الى الماء مرة أخرى لكي تعوم بجانب الذبابة الأولى التي كانت تتأرجح هناك وهي تموت

— انها لن تسبح طويلاً الآن ! انها لتشم رائحة الموت وعثيرته ، وأنا نفسي لا أرغب في أن أضطجع الى جنب رجل ميت ، وأظنني لو فعلت ذلك أموت رعباً فور الساعة في ذلك المحل . . . سوف ترى سلوك الذباب بين يدي الموت !

وقبض قبضة كبيرة من الذباب وطوح بها في الماء ، فعادت تلك الكومة السوداء خليطاً مضطرباً دائراً ، وأخذن — من خشية الموت — تصدم احداهن الأخرى وتدفعها تحت الماء بقوة وبدون رحمة . فكرر الصبي قوله : من الغريب أنهن لا يصرخن باكيات !

وعندما عادت الكومة تتضاءل قليلاً — والظاهر أنهنَّ كنَّ يردنَ الابتعاد جميعاً عن الذبابات المبتلات — أعادهنَّ مرة أخرى بعملية الكبريت . وبدأ الصراع من جديد ، وأصبح من الصعب تمييز الذبابات واحدة واحدة في ذلك الخليط المتكدس . فشرع الصبي يقول متفلسفاً :

— لقد كانت الذبابات جميعاً حاطة من قبل بهدوء ورضى على الوسائد ... ولا بد أن يكون بينها أمهات وأطفال ، وأخوات ، ولكنها لا تتعارف الآن ، بل تريد كل واحدة أن تقتل الاخرى فقط ! كذلك كان يتفلسف ! وكان خلال ذلك الوقت عاملاً على إعادة كل هاربة منهنَّ الى الكومة . وكذلك مضى في اللعب بهنَّ الى ان أدركهنَّ الاعياء — فشرعت الواحدة منهنَّ تلو الاخرى — تطبق أجنحتها وسيقانها على جسمها وتدلي برأسها المبتل في الماء . وهنا حدث أمرٌ عجيب . فبينما كنَّ من قبل تهاجم الواحدة منهنَّ الاخرى ، أخذن الآن — في هذه اللحظات القلائل الاخيرة — يتقاربنَ ويتجمعنَ ، وتضم الواحدة منهنَّ جسمها الى الأخرى حتى تكونت منهنَّ أخيراً كتلة كثيفة متجانسة تتأرجح على الماء المتموج !

— سأريك الآن كيف تموت الذبابة وهي بين يدي الموت ! وقبض على ذبابة واحدة ووضعها بعناية فوق الكتلة السوداء ، فتلفتت مراراً حواليها ، ثم استقرت ساكنة وعيناها الكبيرتان تلمعان . فأشار الصبي بإصبعه :

— انها تعرف الآن انها بين يدي الموت !

فحاولت الذبابة ان تقوم بقوة ولكن التيار اضطرها الى ان تنزل أكثر فأكثر بين الأموات الذين كانوا يحيطون بها من كل جانب ، وكانت أجسامهنَّ الباردة المبتلة تصطدم بها وعيونهنَّ التي عميت تحملق . وعلى حين غرة وبدون ان تكافح كفاحاً ما ، طوت اجنحتها على جسدها ورمت برأسها في الماء . فقال الصبي موضحاً : — لقد كانت هذه الذبابة تستطيع ان تسبح نصف ساعة ، وربما كانت تستطيع الوصول الى الساحل ، لأن أجنحتها لم تبتل . ولكنها ماتت رعباً ! . ثم قبض على الكومة كلها ورمى بها من النافذة الى الساحة ... الى الصباح المشرق في الربيع

وفي العشية ، كنت جالساً قرب النافذة في غرفتي ألقي بنظري الى الساحة ، وكان الأطفال يلعبون هناك والفتيات الصغيرات قد ارتدينَ أثواباً ذات ألوان فرحة زاهية تلمع في ضياء الشمس ، وكان صاحبي جالساً بينهنَّ على الرمل . فكنت أرى نظرته الشديدة الباردة وشعره الجعد الذي يلمع كالذهب الخالص . والفتيات يتراحمنَ حوله وهن غارقات ، ولكنه نجي من الهدوء والبرود كما كان بجانب كومة الذباب

فداخلني منه رعب صامت !